
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

المصباحية، العدد 9، 2012 – سلسلة العلوم الإنسانية – الصفحات 72- 88

مدينة أصيلا: التاريخ والمعمار والمجتمع

ذ .الحاج موسى عوني و ذ.محمد شوقي

كلية الآداب سايس– فاس

إن تاريخ المدينة العتيقة لأصيلا[1] وثيق الصلة بموضعها وموقعها الجغرافيين، فمنذ المراحل الأولى لتأسيس المدينة، تفاعلت هذه الأخيرة مع محيطها المتوسطي خلال فترات الرخاء والازدهار، أو التدهور والدمار. وعرفت تحولات عمرانية ومعمارية وبشرية واقتصادية عدة، لاسيما بعد الفتح الإسلامي وفترة الاحتلال البرتغالي.

ومع مطلع القرن العشرين، تزايد انفتاح المدينة على الخارج بشكل مطرد، وانعكس على مستوى عمران المدينة العتيقة الذي تميز بتفاعله البين مع هذا الانفتاح.

ويتوخى هذا المقال إبراز العلاقة بين التطور التاريخي للمدينة وإطارها المبني، خاصة على مستوى المكونات والخصائص المعمارية. كما يروم رصد أثر انفتاح المدينة على مسارها الحضري العام.

تأسيس مدينة أصيلا: تأثيرات الموضع والموقع

تقع مدينة أصيلا العتيقة على ساحل المحيط الأطلسي، في أقصى الشمال الغربي للمغرب، وذلك على مسافة 40 كلم جنوب مدينة طنجة.

يعتبر الموضع الساحلي للمدينة أحد أسباب انفتاحها منذ القدم على الخارج. وقد عزز الموقع الجغرافي العلاقة مع العالم المتوسطي منذ قرون طويلة خلت.

وتتباين آراء الدارسين والباحثين حول تاريخ تعمير مجال أصيلا. إلا أن التحريات والتنقيبات الأثرية كشفت عن وجود مواقع قديمة بالمنطقة تعود إلى ما قبل وصول الفاتحين المسلمين إلى المغرب الأقصى، ومن أهم المراكز الأثرية زليل[2] التي عرفت حركة التعمير قبل

---

[1] – كتبنا إسم أصيلا بهذا الرسم بدلا من أصيلة وذلك اعتمادا على الرسم الذي ورد في أكثر المصادر التاريخية .

[2] ــ ماجدة بنحيون، **مدن موريطانيا الغربية خلال القرن الأول قبل الميلاد**، أطروحة دكتوراة الدولة، جامعة شعيب الدكالي، الجديدة ، 2006ــ 2007، ج1، ص. 121 وما بعدها. وتعرف زليل اليوم بموقع الدشر الجديد.

القرن الأول قبل الميلاد، وهي توجد على بعد 13 كلم إلى الشمال الشرقي من أصيلة، وكذلك موقع الأقواس[3] الذي يبعد عن مدينة أصيلا بحوالي 7,5 كلم الذي اشتهر بصناعته الخزفية قبل الفترة الرومانية. المؤكد أن التعمير بمجال أصيلا قديم، لكن تشييد مدينة أصيلا في حد ذاتها راجع في الغالب إلى الفترة الإسلامية، وفي هذا الصدد، يذهب الجغرافي الأندلسي البكري إلى أن تعميرها جاء عقب نزول المجوس النورمانديين في مينائها بحثا عن الكنوز. وبعد انتشار خبرهم بين سكان المنطقة، بادر الناس وخاصة أهل كتامة إلى بناء رباط بالمنطقة، احتضن سوقا عامرة تقام ثلاث مرات في السنة، جلبت إليها التجار من الأندلس ومن أمصار عدة، فأقاموا بها وبنوا المساكن بشكل تدريجي إلى أن أصبحت مدينة عامرة. وبعد ذلك بادر الأمير الإدريسي القاسم بن إدريس إلى بناء سور حول المدينة وأقام بها قصره[4]. وبناء على هذه الرواية فإن تشييد أصيلا وإن تم بمبادرة من السكان المحليين، فإنه جاء تحت الضغط الخارجي، وهو عامل سيؤثر في المسار التاريخي العام للمدينة إذ أنها ستتعرض لأعمال الهدم وإعادة البناء في أكثر من مرة، ولهذا طبع تاريخها بفترات تناوب فيها الأمن والاستقرار بالفتن والصراعات، والبناء والتعمير بالهدم وإخلاء المدينة.

إن تاريخ المدينة هو نتاج لتلاقح وانصهار متواصلين بين حضارات وافدة وحضارة السكان المحليين، فالانفتاح ظل مهيمنا سواء كان ذلك بشكل إرادي طوعي أو كان قسريا.

1- أثر الانفتاح على التطور العمراني لأصيلا إلى ما قبل الغزو البرتغالي

منذ تأسيسها دفعت أصيلا ثمن جغرافيتها غالياً لا سيما على الصعيد العمراني. فالمدينة تعكس تاريخها المضطرب وغير المستقر.

ومع أن تعمير مجال أصيلا يعود إلى ما قبل الفترة الإسلامية، فإن التطورات التي أثرت على المدينة وتركت بصماتها واضحة على معالمها تعود أساسا إلى مرحلتين:

---

[3] ــ نفسه، ج. 1 ، ص. 115.

[4] - البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، 1965، ص. 112.

2-1- المرحلة الإسلامية

وهي تمتد من وصول المسلمين واستقرارهم في مجال أصيلا إلى حدود الغـزو البرتغـالي للمدينة (القرن 9هـ/15 م). لقد شهدت المدينة خلال هذه المرحلة عدة تحولات، وتخللتـها فترات الازدهار والتوسع، وفترات الركود والتراجع. كما تأثرت بالأحداث الكـبرى الـتي عرفتها منطقة الشمال خصوصا، والمغرب عموما.

واستنادا إلى النصوص التاريخية يتبين أن المدينة زودت -منذ القرون الأولى للهجرة- بسور حصين، يكفل الحماية والأمن لسكانها. وستزداد أهمية المدينة بشكل كبير خلال القرن الخامس الهجري مستفيدة من تطور العلاقات بين المغرب والأندلس. فقد أشار البكـري[5] أن أصـيلا استكملت جل التجهيزات والمرافق التي كانت تحظى بها الحواضر خلال العصر الوسيط. فـإلى جانب سورها المتين ذي خمسة أبواب، هناك المسجد الجامع الذي يتشكل من خمسة بلاطات، والمقبرة التي تمتد في جهتها الشرقية. كما كانت تزخر بعدد كبير من الآبار العذبة الموزعة داخل الأسوار وخارجها، لتلبي الحاجيات الأساسية للسكان، وكان لها سوق أسبوعي ينعقـد كـل جمعة، وكان مناسبة لتوثيق العلاقة بين المدينة من جهة ومحيطها الريفي القريب وحواضر المنطقة من جهة ثانية. واشتهرت المدينة أيضا بمرساها المأمون الذي كان نافذة أصيلا على الخارج بمـا كان يستقبله من سفن أجنبية محملة بالبضائع الشرقية والأوربية، الشيء الذي ساعد على تعزيز نشاطها التجاري.

لكن بريق المدينة سيعرف انحصارا كبيرا خلال القرن السادس الهجري، فقد أشار الإدريسي إلى تقلص مساحة المدينة وضعف عمرانها وتدهور مرافقها وتجهيزاتها: " وهي مدينة صغيرة وما بقي منها الآن إلا نزر يسير، وفي أرضها أسواق قريبة، وأزيلا ويقال أصيلا عليها سور وهـي متعلقة على رأس الخليج لمسمى بالزقاق وشرب أهلها من مياه الآبار"[6].

5 - نفس المصدر والصفحة.

6 - الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.، ج.2.ص. 530.

وموازاة مع ذلك التراجع والانكماش، فقدت المدينة تدريجيا مواردها البشرية،[7] ونزح السكان عنها، الشيء الذي دفع الفقيه العزفي -حاكم سبتة- إلى إرسال فرقة من أسطوله إلى أصيلا قصد تدمير أسوارها وقصبتها مخافة أن تمتد إليها يد النصارى، وكان ذلك عام 663هـ/1264م[8]. وقد شكل حدث تخريب المدينة إحدى المحطات السوداء في تاريخها، إلا أنه لم يكن الأول ولن يكون الأخير في المسار العام لتطور المدينة. إن أصيلة مثال للمدن التي توالت عليها عمليات التخريب والدمار، لكنها استطاعت دوما تحقيق الانبعاث والإقلاع من أنقاض الركام، مما جعل منها نقطة ثابتة وفاعلة ضمن خريطة المدن المغربية.

ومما يدل على ذلك أنه بعد الخراب الذي عمها خلال القرن السابع الهجري، عرفت انطلاقة جديدة واستأنفت نشاطها بعد ترميم مظاهر الدمار وبناء مقومات الحياة من تجهيزات ومرافق ومباني كما يؤكد على ذلك نص ابن الخطيب الذي يصفها خلال أواسط القرن الثامن الهجري بالمدينة العامرة والمزدهرة ذات المرافق الكثيرة، من مساجد وحمامات وفنادق وغيرها[9]. كما شكلت وقتئذ مركزا أساسيا للصيد البحري، وسوقا عامرة بفضل استقبال مرساها للسفن القادمة من جهات عدة، محملة بمختلف البضائع والسلع، لاسيما المنسوجات والتوابل. ولهذا جذبت المدينة إليها التجار الأوربيين الذين استقر بعضهم بها للاستفادة من حركتها التجارية، فزاولوا أنشطتهم بالفنادق والأسواق إلى ما بعد الغزو البرتغالي للمدينة[10].

يتبين إذن أن ميناء أصيلا كان قبلة مفضلة للتجار مما أهله للقيام بدور التواصل والاحتكاك فيما بين المدينة والعالم الخارجي.

7 - لم تذكر المصادر أسباب التراجع الذي عرفته المدينة، فهل تأثرت سلبا بالصراع الطويل حول الحكم بين المرابطين والموحدين؟

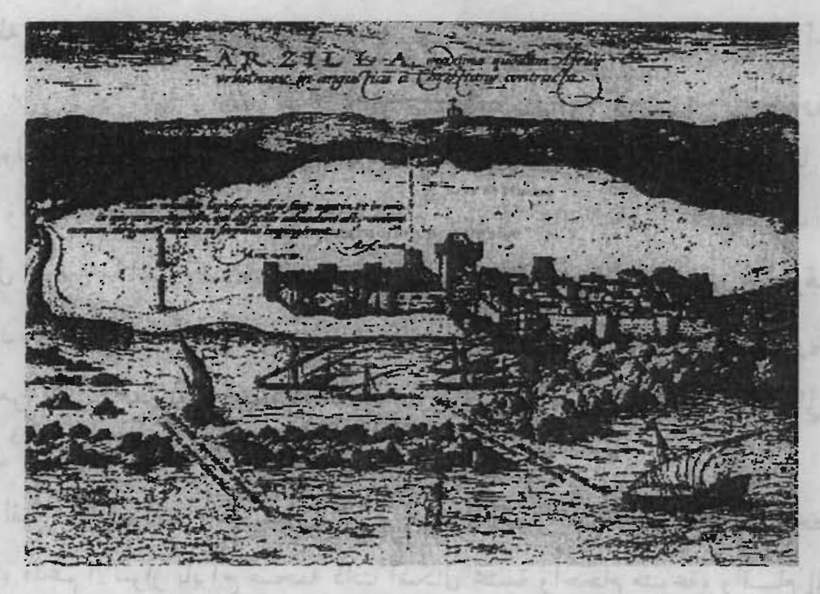
8 - ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور، الرباط، 1972، ص.101.

9 - ابن الخطيب ، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، ت. كمال شبانة، مطبعة فضالة، المحمدية، د.ت.، ص.150. كما خصها الحميري – الذي توفي بعد عام 866هـ– بوصف نقل أكثر فقراته من وصف البكري، انظر: الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار، معجم جغرافي**، ت. إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1985، ص. 42.

10 - مادة أصيلة، **معلمة المغرب**، 1989، م.2. ص. 487.

2-2- مرحلة الاحتلال البرتغالي للمدينة

جاء احتلال أصيلة عام 876هـ/ 1471 م في سياق الاستراتيجية العامة للتوسع البرتغالي التي جعلت من السيطرة على السواحل المغربية إحدى أهدافها الأساسية. وتذكر المصادر أن سكان أصيلة قاوموا بشدة الغزاة، لكنهم اضطروا للاستسلام أمام جنود البرتغال الذين كانوا مجهزين بأحدث الأسلحة والعتاد الحربي. وقد عاث الغزاة فسادا بالمدينة من قتل وسبي وأسر لأهلها رجالا ونساء وأطفالا[11] (صورة.1).



صورة 1: منظر عام لمدينة أصيلة خلال القرن الخامس عشر الميلادي

[11] - الوزان، م.س. ص. 313..و الحاج بن عيسى عبد الكبير العيساوي ، أصيلة ، الماضي والحاضر، 1994، ص. 123 وما بعدها، وابن منصور، م.س. ص. 81، والجباري، م.س. ص. 35-37، و مصطفى عبد السلام المهماه، القمرة ، منشورات جمعية أصيلة للتنمية، 2004. ص. 8.

وأمام ضربات المجاهدين وهجمات المقاومين المتواصلة، قام البرتغاليون بإعادة تحصين المدينة. فعلى غرار ما فعلوه في عدد من المدن الساحلية المحتلة[12]، قرروا خصم نصف مساحة أصيلة ، ولذلك بنوا السور حول الجزء المحاذي للبحر، وهو الذي يشكل -إلى يومنا هذا- ما يسمى بالمدينة العتيقة. ونظرا لتقلص مساحة المدينة، بقيت بعض أحيائها خارج الأسوار البرتغالية، إلا أنها ما لبثت أن انمحت وانقرضت بسبب الحروب المتتالية وجلاء السكان الأصليين عنها. ولهذا ينبغي أخذ هذا المعطى بعين الاعتبار في المخططات العمرانية ذات الصلة بالأحياء المحيطة بسور المدينة وخاصة تلك الممتدة في الجهة الشرقية والشمالية. فالراجح أنها أحياء ذات قيمة تراثية وأثرية فريدة بالنظر إلى ما تحتضنه طبقاتها تحت الأرض من كنوز وذخائر أركيولوجية، قد تساهم الأشغال والأبحاث المستقبلية في الكشف عن بعض أسرارها.

ومن المعلوم أن البرتغاليين اكتسبوا شهرة كبيرة في مجال التحصين والبنايات العسكرية خلال القرنين الخامس والسادس عشر، فمن الطبيعي أن تستفيد أصيلة من خبرتهم في هذا الميدان، وهكذا حظيت ببرنامج هام لبناء تحصيناتها، أشرف على إنجازه المهندس بويتاك الذي يعد من أشهر المعماريين وأحد أعمدة المدرسة الإيمانويلية نسبة إلى الملك البرتغالي إيمانويل الأول[13].

لقد حرص بويتاك- المهندس الملكي- على بناء أسوار أصيلة وحصونها تبعا للخطة المرسومة سلفا، فدعم الأسوار بأبراج ضخمة ذات أشكال مختلفة وأحجام متنوعة، وأقام إلى جانبها

12 - De Gois, Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521, trad. Robert Ricard, éd. Félix Moncho, Rabat, pp. 62-63

- التوري و كارا، "الاحتلال البرتغالي وهاجس التحكم في المجال من خلال مقاربة أثرية لمدينتي آسفي وأزمور"، مقال ضمن كتاب **الوجود البرتغالي وآثاره في المغرب**، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة الندوات، ، آسفي، 7-9 اكتوبر 2004، ص. 171-192.

13 - كان بويتاك مباشرا لأعماله بأصيلة عام 1509 ، انظر بيدرو دياش، **البرتغاليون في المغرب ، عمارة وعمران من 1415 إلى 1769.** ص.96..

أما الفن المانويلي فيتميز بكونه ذي طابع زخرفي لاستلهامه من عناصر الفن القوطي. وهو يعكس العصر الذهبي للاكتشافات الجغرافية من خلال تعدد مواضيعه ذات الصلة بالبحر (الحبال، المرجان، المرسى...).

الدروع السميكة والمتينة، ثم أحاطها بخندق عميق وعريض، مما جعل أصيلا على شكل جزيرة لا تتصل بالبر إلا بواسطة قناطر متحركة.

وفضلا عن المباني ذات الوظائف العسكرية، شيد البرتغاليون المرافق التي تخدم مشروعهم الاستيطاني، كقصر الحاكم وبرج القمرة والمخازن والإسطبلات. كما حولوا المساجد إلى كنائس[14]، واستغلوا منازل الأهالي كدور ومقرات لجنودهم وأسرهم.

لقد تحولت أصيلا خلال العهد البرتغالي إلى مجرد قلعة محصنة، لها أسوار منيعة وأبراج ضخمة مجهزة بالمدافع والأسلحة النارية، وبالمقابل تراجع إشعاعها التجاري وأهميتها العمرانية إلى درجة أنها نعتت بقرية أصيلا [15] Villa de Arsila، وبالتالي انكمش البرتغاليون داخل الأسوار وقل تواصلهم مع السكان المحليين.

وبعد تحرير أصيلة من الاحتلال الإيبيري خلال عهد المنصور السعدي[16]، تحولت خلال القرن السابع عشر الميلادي إلى قلعة متقدمة لمقاومة العدو الجاثم على الثغور المغربية، وقد اتخذها الخضر غيلان قاعدة للجهاد وبنى بها داره[17] التي سيستقر بها مولاي أحمد الريسوني في بداية القرن العشرين بعد أن أدخل عليها تعديلات مهمة. ثم خضعت أصيلة للحماية الإسبانية عام 1912، ويبدو أنها عانت حينئذ من التهميش لأن الإسبان وجهوا اهتمامهم للعرائش المجاورة.

3- التراث المعماري بأصيلا

كشفت الأبحاث الوثائقية والتحريات الميدانية على توفر أصيلا على تراث معماري متنوع وغني يحمل بصمات التفاعل بين المدرسة المعمارية المغربية والمدارس الفنية الخارجية وخاصة منها المدرسة الإيبرية. فالمدينة القديمة نموذج حي للتراث المغربي البرتغالي والذي استطاع مقاومة عوادي الزمن وعوامل التعرية المختلفة، وهو شاهد على التاريخ المنفتح لأصيلا التي كانت عبر

[14] - بيدرو دياش، م.س. ص. 109 و 205. و ابن منصور، م.س. ص. 81.

[15] - مادة أصيلة ، معلمة المغرب، م .2. ص. 488.

[16] - ابن عزوز حكيم، **أصيلا قرن من تاريخها الذهبي (1589-1689)**، تطوان ، 2004، ص. 17.

[17] - نفسه. ص. 92. وعبد العزيز بنعبد الله ، أصيلا ص.225.

العصور محطة للأخذ والعطاء بين التيارات الحضارية التي هبت نسماتها على ضفاف البحر المتوسط.

تمتاز مدينة أصيلا بتراثها الأصيل ومعالمها التاريخية الفريدة. وإذا كان من الصعب العثور داخل أسوارها على مباني كاملة الهيئة، تعود إلى ما قبل الغزو البرتغالي بسبب ما توالي عليها من عمليات الهدم وإعادة البناء، فإنها بالمقابل تحتفظ بعدد لا يستهان به من المعالم التاريخية التي تدل على عبقرية الصناع المحليين وعلى قدرتهم على التفاعل مع أضرابهم الوافدين من شمال البحر المتوسط.

3-1- العمارة العسكرية

تعد المباني ذات الوظيفة الدفاعية من أهم أنواع التراث المبني بأصيلا. فالمدينة تزخر بأسوار متينة، تمثل وعاءها الخارجي وصورتها التي تبقى حية في مخيلة زوارها، فالأسوار تشكل شريطا منيعا ومتصلا، يمتد على مسافة 1200م، يحيط بالمدينة من مختلف جهاتها. تدعم الأسوار خمسة أبواب من أشهرها وأقدمها باب الحمر[18] وباب البحر. كما تتخللها عدة أبراج (أكثر من خمسة عشر برجا (صورة. 2 و 3) كبيرة الحجم ومتنوعة التخطيط (مربعة، مستطيلة، نصف دائرية أو مثمنة)[19] ، فضلا عن الدروع التي تمتد أساسا جهة البحر حتى تساعد في حماية السفن والمراكب وتعزز القدرة الدفاعية للمدينة. و يلفها أيضا من النواحي البرية خندق كبير يصل عمقه حوالي ثمانية أمتار[20]، شكل فيما مضى سدا منيعا أمام القوات المهاجمة، وما تزال آثاره واضحة من الجهة الجنوبية للمدينة.

---

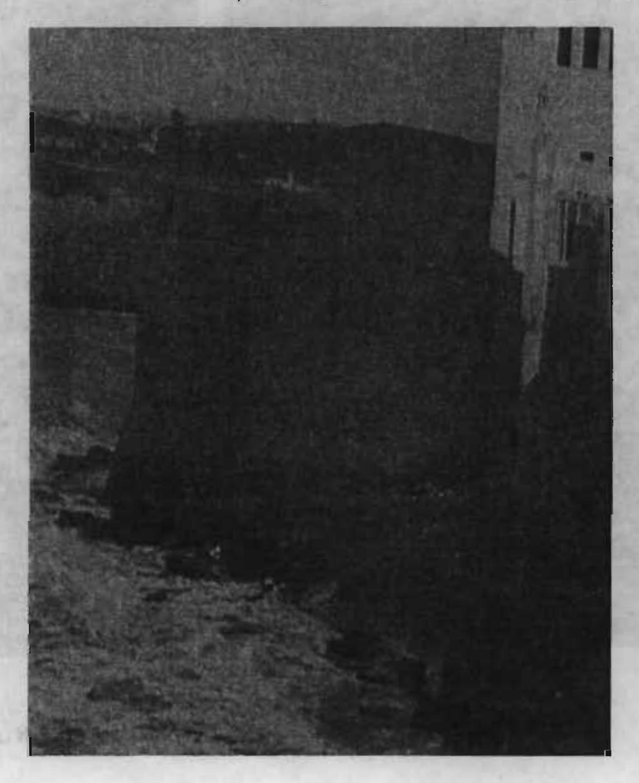
[18] - يوجد بالواجهة الشرقية للمدينة، ويعد الباب الأضخم حجما والأكثر حصانة والأتقن بناء. وهو يحمل اسم مدينة الحمر التي كانت قائمة على بعد 42 كلم جنوب أصيلة وكانت معروفة بنسج الأقمشة، انظر : الوزان، م.س . ص. 311.

[19] - من أهم ابراج المدينة : القريقية، للارحمة وسيدي ميمون...

[20] - بيدرو دياش، م.س. ص. 104.

ومن أشهر معالم أصيلا برج القمرة Torre de Managem (صورة4) الذي ينتصب بجوار القصبة وبمحاذاة باب البحر. وهو يشرف على المدينة ويراقب محيطها البري والبحري[21]، ويحتوي على بعض عناصر التشابه مع برج بيلم الذي شيده الملك إيمانويل الأول على مشارف وادي التاج بلشبونة.

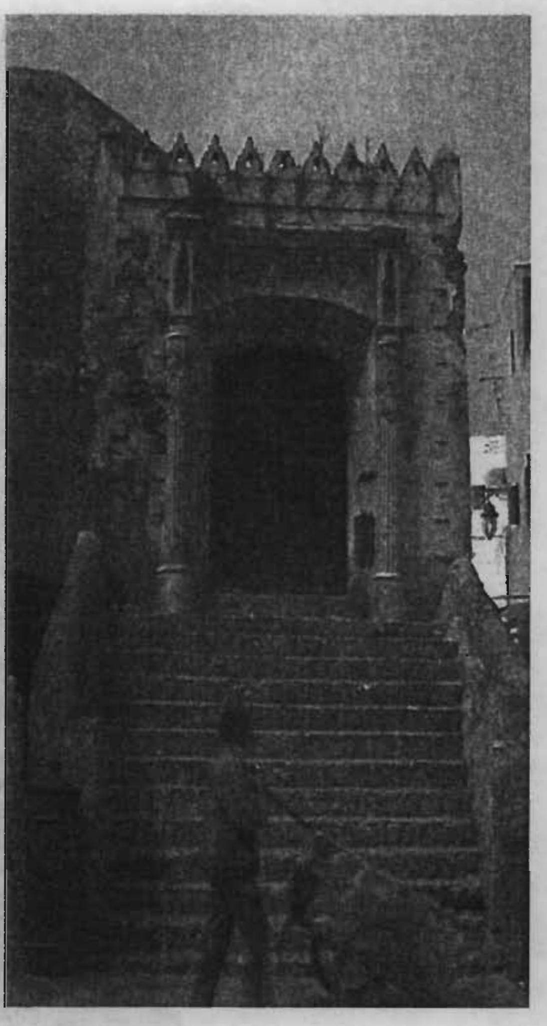
وتحتفظ المدينة بأسوارها البرتغالية التي تعد حاليا من العناصر الأساسية المكونة لتراثها المعماري بدليل أنها سجلت كمعلمة وطنية عام 1996 [22].



صورة 2: برج سيدي ميمون

[21] - لمزيد من التفاصيل عن القمرة ، انظر: المهماه، القمرة ، ص.12 وما يليها.

[22] - انظر ظهير 2-95- 892 المورخ ب 24 يناير 1996، الجريدة الرسمية رقم 4352 بتاريخ 15 فبراير 1996.



صورة 3: الباب المفضي إلى برج باب الحمر



صورة 4: برج القمرة

إن احتلال أصيلا لفترات طويلة لم يفقدها طابعها العربي الإسلامي كما تشهد على ذلك المساجد التي تنتشر في مختلف أحيائها. ومع ذلك فإن المساجد القديمة عانت كثيرا من الاحتلال

لأنها تعرضت لأعمال التغيير وإعادة التوظيف والاستعمال. لقد أشار الباحثون إلى أن عددا منها تحول إلى كنائس، وذلك على غرار ما جرى في المدن المحتلة الأخرى. ومن أهم مساجد المدينة الجامع الكبير الذي يتكون من نواة أولى تشتمل على ثلاثة أساكيب وثمانية بلاطات متوازية مع جدار المحراب وقد زيد في مساحته خلال العقود الأخيرة. ثم هناك مسجد للاسعيدة الذي ينتصب بجوار برج القمرة وباب البحر. ويذهب بعض الدارسين إلى أن اسمه له علاقة بتحويله من كنيسة إلى مسجد[23]. كما توجد مساجد عتيقة أخرى بأهم أحياء المدينة كجامع ابن عياد وجامع الزكوري وجامع ضريح سيدي امبارك[24].

وتزخر أصيلا – كغيرها من المدن المغربية الأصيلة – بمجموعة هامة من الأضرحة والزوايا. وهي تنتشر بمختلف الأحياء وبالقرب من الأسوار. ومما يلفت الانتباه أن عددا من الأضرحة أقيمت خارج السور وتحديدا بجوار الأبراج الركنية كضريح الأصيلي وضريح للارحمة[25]. ويبدو أن هذا التوزيع للأضرحة لم يكن عفويا، وإنما أملته الرغبة في إبراز الدور الذي قام به هؤلاء في حماية المدينة، إن انتصاب الأضرحة بالقرب من زوايا السور يرمز إلى أنهم حماة المدينة والمدافعون عنها من الأخطار الخارجية التي كانت تحدق بها.

تتوفر أصيلا على فروع لعدد من الزوايا التي كان لها إشعاع كبير سياسيا وثقافيا بالمغرب خلال القرون الأخيرة مثل الزاوية العيساوية والتجانية والقادرية والحمدوشية. ويدل الحضور المكثف للزوايا على انصهار أصيلا وتفاعلها مع الحياة الفكرية والتربوية التي طبعت مراحل هامة من تاريخ المغرب الحديث.

وعلى مستوى آخر، تتباين زوايا أصيلة من حيث الحجم والشكل، إلا أنها حظيت بعناية خاصة على مستوى عناصرها الفنية والزخرفية.

---

23 – كانت البناية إبان الاحتلال البرتغالي تحتضن كنيسة تدعى Igrega Magor Da Santa Bartoloneu ن وبعد تحرير المدينة تم تحولها إلى مسجد، وفي وظيفته الجديدة تكمن سعادته. انظر: الجباري، م.س. ج.2 ص. 68 والمهماه، م.س. ص. 14.

24 – لم ترد في المصادر التاريخية إشارات واضحة حول تاريخ بناء المساجد المذكورة، لكن يبدو أنها ترجع إلى فترة ما قبل القرن التاسع عشر. ويلاحظ أن بعضها تعرض لإعادة بناء كجامع الزكوري.

25 – يوجد ضريح للارحمة داخل الخندق الذي يحيط بالمدينة من الناحية الجنوبية، وهو بجوار البرج الذي يحمل نفس الإسم.

أما أضرحة المدينة فهي كثيرة إلى درجة أنه يمكن نعت أصيلا بمدينة الصلحاء والأولياء. فلم تخصص الأضرحة للرجال فحسب، بل أقيمت للنساء أيضا كضريح للارحمة.

تتفاوت مساحة الأضرحة، فهناك أضرحة كبيرة كضريح علي بن مرزوق والعربي غيلان، وأضرحة صغيرة لا تتعدى القاعة الوحيدة كضريح الإمام الأصيلي وضريح للارحمة.

4- مجتمع مدينة أصيلا العتيقة: انفتاح متزايد منذ مطلع القرن العشرين

مع بداية القرن العشرين، دخلت المدينة في سياق جديد قوامه الانفتاح على المجال المتوسطي. وانعكس هذا الوضع على الجوانب السكانية والبيئية والعمرانية والاقتصادية.

4-1- السكان والبيئة وأثر الانفتاح

منذ التسعينيات من القرن الماضي، بدأ الأجانب الأوربيون أساسا يفدون على المدينة العتيقة ويستقرون بها بعد اقتنائهم دورا للإقامة الدائمة أو شبه الدائمة. وتزايدت وتيرة استقرار هذه الشريحة من السكان الجدد بشكل متصاعد. ويقدر عدد الدور التي تم اقتناؤها من قبل هؤلاء بما يزيد على مائة دار.[26] وفي هذا السياق فان المدينة مقبلة على ظواهر اجتماعية جديدة سوف تنضاف إلى الواقع الاجتماعي الأصيل.

وقد أدى تزايد الإقبال على المدينة العتيقة لأصيلا، سواء من قبل السياح المغاربة أو السياح الأجانب، وكذا الراغبين في الإقامة بها بشكل رئيسي، إلى زيادة الاهتمام بالجانب البيئي. فعلاوة على اعتناء السكان المحليين بنظافة الأزقة وواجهات منازلهم، هناك أيضا تراجع عدد الخرب بفضل عمليات الإصلاح والتجديد التي يعيشها المجال السكني بالمدينة. وعلى مستوى آخر، فإن غياب أنشطة اقتصادية ملوثة داخل المدينة، جعلها تنعم بإطار بيئي جيد. والمثير للانتباه في المدينة العتيقة هو الإنتشار الواسع لما يمكن تسميته بالخضرة داخل أزقتها، ذلك أن السكان يعملون على غرس شجيرات وورود في أوعية معدة لهذا الغرض، يضعونها على جوانب

---

26 – بلدية أصيلة.

أبواب منازلهم. وتعد زنقة ليفيروير مثالا لهذه الأزقة الخضراء داخل المدينة العتيقة. كما تتسم هذه المدينة بجمالية مشهدها الحضري بفضل التزيين الفني لواجهاتها في مختلف الأزقة, مما يعني وجود مستوى جيد من الوعي البيئي والفني لدى جل الأوساط بالمدينة.

4-2- دينامية الإطار العمراني

عند اقتنائهم للمنازل، يعمل المالكون الجدد على إصلاحها أو إعادة بنائها من جديد. وإذا كان الأمر لا يتم دائما وفق الضوابط المعمارية المعمول بها بالمدينة، إلا أن حركية شراء الدور والخرب وإعادة إصلاحها أو تجديدها أكسب المدينة بعض الإيجابيات، لاسيما تضاؤل عدد النقط السوداء، والعناية بالإطار العمراني والمعماري داخل أسوارها. وتعتبر هذه الدينامية العمرانية من نتائج التوجهات الجديدة للمدينة في الميدان التنموي.

وخلال السنوات الأخيرة، تزايد الطلب الأجنبي على العقار مما أكسب المدينة قيمة مضافة تمثلت في ارتفاع ثمن هذا العقار والاعتناء به أكثر فأكثر.

4-3- اقتصاد منفتح متفاعل

4-3-1- الواقع الإقتصادي للمدينة قبيل وإبان فترة الحماية:

حسب بعض المصادر، فإن النشاط التجاري قبل بداية القرن العشرين كان جد ضعيف في مدينة أصيلة، وكانت الحياة الحضرية شبيهة بما هو عليه الحال في البوادي المجاورة. كما أن التبادل التجاري مع المراكز الحضرية كان متواضعا. ولعل هشاشة الوضع الأمني جهويا ووطنيا آنئذ تفسر ظرفية الركود العام الذي عاشته المدينة. ويشير الجدول التالي إلى واقع الأنشطة الاقتصادية بالمدينة خلال هذه الفترة.

جدول1: الأنشطة الإقتصادية بالمدينة العتيقة بأصيلة من بداية القرن 20 إلى 1962.

صنف النشاط	بداية القرن العشرين	1962
بقالة	25	18
ملابس- أحذية – قماش	15	19
حياكة	30	11
صناعة البلغة	20	15
تجارة	1	2
خياطة	15	6

مصدر:

Mlihi youssef (1983), "la médina d'Asilah exemple d'une structure urbaine" thèse du 3ème cycle, Ecole d'Architecture de Rabat.

وكان بيع المواد الأولية كالصوف والجلد يحتل حيزا مهما لاسيما يوم انعقاد السوق الأسبوعي كل خميس. كما كانت توجد خمس مدبغات صغيرة بالمدينة[27].

ويبدو أنه خلال فترة الإحتلال الإسباني للمدينة، بدأت هذه الأخيرة في التكيف مع الظرفية الجديدة في سياق شكل من الانفتاح على الخارج.

والملاحظ أنه خلال هذه الفترة بدأ تراجع الحرف الإنتاجية التقليدية وبدأت المدينة العتيقة تتوجه أكثر فأكثر إلى الأنشطة التجارية، مع تراجع واضح في عدد محلات المواد الغذائية التي انتقلت خارج الأسوار.

27 - Melihi youssef(1983),op.cit.p,50.

4-3-2- الواقع الإقتصادي منذ السبعينيات من القرن العشرين

مع بداية السبعينيات من القرن العشرين، بدأت تترسخ صورة المدينة المنفتحة على الخارج وذلك من خلال ظهور وتزايد أنشطة لها علاقة بزبناء جدد يتشكلون من السياح بشكل أساسي.

جدول 2: الأنشطة الإقتصادية خلال(1971-2006)

صنف النشاط	1971(26)	1982(26)	2006(28)
بقالة	20	21	12
ملابس- أحدية – قماش	20	20	39
بزارات	3	10	30
حياكة	6	5	0
صناعة البلغة	10	9	0
نجارة	10	5	2
خياطة	7	8	7

المرجع إحالة رقم (26) و إحالة رقم (27)

خلال هذه الفترة ترسخ وجود التجارة والتجارة السياحية وذلك كترجمة للظرفية الجديدة المتسمة بحضور السياحة بشكليها الدولي والداخلي. أما الحرف الإنتاجية فقد انقرضت كلية من المدينة العتيقة.

ويبدو أنه خلال فترة الإحتلال الإسباني للمدينة، بدأت هذه الأخيرة في التكيف مع الظرفية الجديدة في سياق شكل من الإنفتاح على الخارج.

[28] - بحث ميداني، 2006.

والملاحظ أنه خلال هذه الفترة بدأ تراجع الحرف الإنتاجية التقليدية وبدأت المدينة العتيقة تتوجه أكثر فأكثر إلى الأنشطة التجارية، مع تراجع واضح في عدد محلات المواد الغذائية الـتي انتقلت خارج الأسوار.

خاتمة

عاشت مدينة أصيلة فترات مد وجزر متواصلة كتلاطم الأمواج مـع شـواطئها. فقـد تعرضت خلال العصور القديمة للتعمير والخراب ثم إعادة البناء، و لم تنج كذلك خلال الحقبـة الإسلامية من محن كثيرة، أتت غير ما مرة على عمرانها. إن توالي عمليات التخريب والتعمير أثر سلبا على تراثها المعماري الذي غلب عليه التقطع وعدم الاستمرارية، ولهذا يصعب العثور على معالم تاريخية ترجع إلى فترات تاريخية متتابعة ومتواصلة. وهي من الخاصيات التي طبعت التاريخ العمراني للمدينة على مر العصور.

وعلى مستوى أخر أثر الاحتلال البرتغالي بشكل كبير على عمارة أصيلا وعمرانها، وطبعها ببصمات عميقة ما تزال آثارها ماثلة للعيان. فقد قلصوا من مساحة المدينة، وحصنوها بحـزام متين من الأسوار والأبراج وذلك وفق ما تقتضيه التطورات التي عرفتها الأسلحة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي، كما شيدوا بها المباني الرسمية والإسطبلات وغيرها مـن المرافق الإدارية، وحولوا المساجد إلى كنائس واستغلوا المنازل التي أخلاها السـكان المغاربـة كمساكن للأسر البرتغالية، مع إدخال التغييرات اللازمة عليها تبعا لحاجياتهم وأذواقهم.

وشكلت أصيلا مشتلا خصبا لانصهار مختلف التيارات الحضارية والفنية، حيث امتزجت في عمرانها وعمارتها أساليب فنية، نهلت من العمارة البرتغالية والإسبانية من جهـة والعمـارة الإسلامية من جهة ثانية، فأنتجت معالم ذات طابع فني فريد، ولهذا لاعجب أن نجد أشـكالا فنية وزخرفية إيبرية – والتي هي ذاتها متأثرة بعمارة المسلمين بالأندلس- مندمجة بشكل متناسق ومتناغم في المباني الإسلامية ذات الوظيفة الدينية والسكنية. وهذا التمازج والانصهار يشـكل

إحدى السمات الأساسية التي تميز عمارة المدينة والتي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار أثناء أعمال الإصلاح والتهيئة لهذا الفضاء.

إن تميز التراث المعماري والعمراني لأصيلة وتفرده يفرض على المعنيين والمتدخلين في المدينة تكثيف جهودهم وتنسيق أعمالهم لحمايته وصيانته. ولاشك أن عملية رد الاعتبار لتراث من هذا القبيل، تستوجب القيام بدراسة جادة لفهمه وترميمه وإعادة توظيفه كأداة فعالة في عملية التنمية المستدامة للمدينة. كما ينبغي أن يكون هذا التراث منهلا يستقى منه ومرجعا حيا يستفاد منه في أعمال التهيئة العمرانية بمجال المدينة ومحيطها، مما يضمن له الاستمرارية والديمومة.

يبدو أن المدينة العتيقة لأصيلة استفادت كثيرا من انفتاحها على الخارج، فهي كمجال عمراني صغير ومحدود الأهمية والإمكانيات، استطاع أن يستفيد معماريا وثقافيا واقتصاديا واجتماعياً وبيئياً، وأصبحت المدينة العتيقة نموذجا للمدن التي نجحت في مسارها التنموي المنفتح. لكن التحول العمراني الراهن داخل هذه المدينة التاريخية يدفع إلى التساؤل عن مآل هذا النجاح مستقبلا.